المحاضرة الثالثة: شعر الصعاليك.

مراجع المحاضرة:

- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي.
- يوسف خليف: الشعراء الصعاليك.
- حنفي عبد الحليم: شعر الصعاليك. منهجه وخصائصه.
- محمد رضا مروة: الصعاليك في العصر الجاهلي. أخبارهم وأشعارهم.
- ترشاق سعاد: محاضرات في النص الأدبي القديم.
- محمد برونة: شعر الصعاليك. قراءة في المتن.

التعريف بالصعلكة:

في لسان العرب؛ الصعلوك: الفقير الذي لا مال له. قال حاتم الطائي:

غنينا *زمانا بالتصعلك والغنى فكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

وتصعلكت الإبل: خرجت أوبارها ، وانجردت وطرحتها.

ويمكن رد كل المعاني اللغوية لكلمة (تصعلك) إلى الضمور والانجراد

والصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه، ليشق طريقه فيها، ويعينه عليها، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر، الذين يتعاونون على الحياة، ويواجهون مشكلاتها يدا واحدة.

والصعاليك هم الجانب الآخر للعصر الجاهلي، هم الجانب المتمرد على أوضاع وتقاليد قاسية، هم الخلعاء والأغربة الذين شذوا عن قانون القبيلة، فحملوا السيف لإعادة التوازن الاجتماعي لحياة اختلت فيها الموازين والمقاييس.

أما الشعراء الصعاليك ، فهم جماعة من العرب عاشوا في القفار ومجاهل الأرض، يرافقهم الفقر والتشرد والتمرد، لذلك كانوا يغيرون على البدو والحضر ، بقصد النهب، ثم يمضون في الصحراء حيث مخابئهم، فلا يستطيع أحد لحاقهم لسرعة عدوهم ومعرفتهم طرق الصحراء. وقد اتصفوا بالشدة والصبر والاحتمال والشجاعة والقوة والكرم، فكانوا يقتسمون غنائمهم ويساعدون الضعفاء والمحتاجين.

* عشنا

وهذا السلوك الاجتماعي ، جعل الصعلكة تأخذ بعدا إيجابيا ، رغم أنها قامت على السلب والنهب، لارتباطها بالتكافل والتضامن الاجتماعيين بين الصعلوك وأخيه الصعلوك، أو بين الصعلوك وغيره.

أسباب نشأة الصعلكة:

أ – عدم وجود دولة جامعة تضمن الحقو، والمقصود بها عدم وجود قوة حيوية متحركة تسيطر على الأمة، ويشعر من خلالها أفرادها بالأمن والأمان، وبأن هناك قوانين خاضعون لها خضوعا يؤثر على سلوكهم. فهذه القوة المؤثرة الجامعة كانت مفقودة في العصر الجاهلي، فلم تكن هناك دولة جامعة، ولا قانون جامع، ولا دين جامع.

ب – ظهور زعامات غير متزنة، تمثلت هذه الزعامات في رؤساء القبائل والعشائر ، وهذه الزعامات لم يكن لها قانون يحكمها ، إنما كانت بحسب صفات معينة كان لزاما على الرؤساء التحلي بها لاعتلاء الرئاسة.

ت – عدم التوازن بين الفقير والغني: إذ كان أغلبية الشعراء الصعاليك يتناولون موضوع الفقر في صوره المختلفة. وصورة الفقر عندهم لم تكن تمثل فقرا عاديا،إنما فقرا قاسيا، وكانت آثاره من الجوع والهزال والحرمان أشد إمعاما في القوة.

ث – طبيعة الأرض والحياة: تميزت شبه الجزيرة العربية بطابعها الجبلي الصحراوي، فهي بطبيعتها توفر للصعاليك حصونا منيعة، وبرغم نشأتهم في مناطق قريبة من الخصب، إلا أنهم فضلوا هذه الطبيعة القاسية من جبال وقفار وأماكن يخشى غيرهم ارتيادها. فكانت هذه الأراضي الصحراوية القاسية سببا في نشأة ظاهرة الصعلكة.

فئات الصعاليك وصفاتهم:

يصنف الصعاليك إلى ثلاث فئات هي:

1 – **الخلعاء والشذاذ:** هي مجموعة خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم ، منهم حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية.

2 – **أبناء الحبشيات السود:** هم مجموعة نبذتهم قبائلهم ، ولم يلحقوهم بهم لعلة ولادتهم من الإماء. منهم: السليك بن السلكة، الشنفرى، تأبط شرا.

3 – **مجموعة ثالثة** احترفت الصعلكة ، رغم أنها لم تكن من الخلعاء ولا من أبناء الحبشيات السود . منهم عروة بن الورد.

أما عن صفاتهم، فقد عرف الصعاليك بالعدو السريع، والهجوم الخاطف، والعراك العنيف، وانتهاز الفرص، كما كانوا يتمثلون كثيرا من صفات البطولة والشهامة.

مصادر شعر الصعاليك:

شعر الصعاليك هو مصطلح يصف ظاهرة أدبية ، أوجدتها طائفة من شعراء العصر الجاهلي، عكسوا بسلوكهم وشعرهم نمطا فكريا واجتماعيا مختلفا عما هو في العصر الجاهلي . وإذا كان الأصل اللغوي لهذه الكلمة يقع في دائرة الفقر، فإن أدب الشعراء

الصعاليك امتاز بخصائص فنية جيدة، طبعت شعرهم ، وجعلته في مرتبة عالية من الجودة الفنية لغة وموضوعات ، خاصة وأنه يتميز بالصدق، ، وبمجاراة الواقع المعاش لا واقع القبيلة الذي يروج له سادتها والأقوياء منها.

لكن إذا كان الشعراء الصعاليك يمثلون طائفة خارجة عن المجتمع، متمردة على أوضاعه وتقاليده، لا تحرص على قبائلها، كما لا تحرص قبائلها عليها.فإن نتيجة ذلك أن القبائل لم تحرص على شعرهم، لأنه يمثل ذلك الخروج عليها، وذلك التمرد على أوضاعها وتقاليدها، ولأنه حديث فردي يعنى بتصوير شخصيات أصحابه، بقدر ما يهمل شخصيات قبائلهم. إذن كيف وصلنا شعر الصعاليك؟ ومن كان يرويه ويحفظه ويردده؟ وما هي المصادر التي أذاعت شعر الصعاليك؟

أول مصدر هي القبيلة نفسها، ذلك أن الشعراء الصعاليك قبل أن يختاروا حياة التصعلك ، عاشوا مع قبائلهم حياة قبلية. إذ ليس مما يمكن تصوره أن يبدأ هؤلاء الصعاليك حياتهم في التصعلك منذ أن رأت أعينهم نور الحياة، فالمتصور أنهم عاشوا فترة من حياتهم مع قبائلهم. ومثال ذلك قيس بن الحدادية الذي شارك قبيلته اجتماعيا وفنيا مشاركة قوية، خاض معها غمار أيامها، بل قادها أحيانا إلى النصر، وتغنى بهذا كله في شعره. فمن الطبيعي أن تحرص القبيلة على هذا الشعر وترويه. ومعنى هذا أن جزء من شعر الصعاليك ، وهو ما يصح أن نطلق عليه (الشعر خارج دائرة الصعلكة) قد وصل إلينا عن طريق قبائلها نفسها.

ومما نقلته القبيلة أيضا، ذلك الشعر الذي خلا من مهاجمتها، والتعرض لها بما تكره؛ كوصف الغارات، أو وصف وحش الصحراء، أو قصص تلك الأشباح التي كانت تتراءى للصعاليك في تشردهم، فما على القبيلة ضير من رواية هذا الشعر، أو هذه الأقاصيص العجيبة في ليالي السمر.أما ذلك الشعر الصادر من الشعراء الصعاليك ، والذي يتصدى للقبيلة ويسيء إليها ، فإن القبيلة أغفلته ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

أما المصدر الثاني فهي القبائل التي استجار بها الخلعاء من الشعراء الصعاليك.

أما المصدر الثالث فهم الصعاليك أنفسهم، فقد روى الصعاليك شعر شعرائهم، وتغنوا به ورددوه في كل مناسبة، لأنه صورة من حياتهم، وتعبير عن مذهبهم في الحياة.

الشعر العربي بين السلطة والحياة: عاب المستشرقون على أدبنا أنه أدب زيف، وهجاء، ومدح. ويضيف هؤلاء المستشرقون أن الأدب العربي أدب سلطة، كانت تغذيه، وتقربه، وتشل حركته التاريخية، فهل ينطبق هذا على الشعر العربي في جميع نماذجه؟

الأدب هو الحياة برمتها، بصرف النظر عن موقف السلطة. والأدب الخالد هو الذي يقف دائما موقفا حرا. وهذا موقف الشعراء الصعاليك. فشعر الصعاليك صدر عن حرية الشاعر، لا عن موقف السلطة، فكان أدبا خالدا، لأنه صدر عن موقف حر للشاعر. لهذا يعد شعر الشعراء الصعاليك أول أدب معارضة عند العرب. وقط أهمل المستشرقون هذا الجزء الهام من الشعر العربي القديم، فكانت نظرتهم له نظرة قاصرة.

مواضيع شعر الصعاليك:

1 - موضوع الحرمان والجوع والفقر

2 - موضوع الحيوان : إن لجوء الصعاليك إلى الجبال، والفيافي الموحشة، ووديانها المخيفة، أدى إلى مواجهة وحوشها؛ من ذئاب وضباع وغيرها، فتفننوا في تسمية تلك الوحوش، وذكر أوصافها...لهذا كان أمرا طبيعيا أن تحضر حيوانات الصحراء الخطيرة في شعر الصعاليك بقوة، لأنهم ألفوها واستأنسوها. يقول الشنفرى:

ولي دونكم أهلون سِيد عَمَلَّسُ وأَرْقَطَ زُهْلول وعرفاء جَيْأَلُ

فذئب قوي سريع، ونمر مرقط، وضبع كثيف الشعر، طويل العنق، أصبحوا قوم الشاعر وعشيرته ومستودع أسراره

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذَل

وهذا يشكل مفهوم الحرية عند الشاعر الصعلوك، والثورة على الجماعات البشرية المحيطة به، والانتماء إلى المملكة الحيوانية، لأن السر محفوظ عندهم، والجماعة تحمي الفرد.

إن علاقة الشعراء الصعاليك بالوحش من الحيوانات، تكاد تكون علاقة ألفة واستئناس، ولأنهم أَنْسَنُوا الطبيعة، فلابد لوحوشها أن تكون كذلك. فهم سعوا إلى البحث عن مشروع مجتمع جديد، لا تذوب فيه فردية الإنسان، ولذا نجد في معظم شعر الصعاليك نفورا من ضمير (هم) وصيغة الجمع (نحن) واستبدالها بضمير (الأنا)

3 - موضوع المرأة

4 - موضوع الشيب

5 - موضوع التآزر والتضامن مع الغير ومع جماعة الصعاليك.

6 - وصف المراقب: ورد في شعر الصعاليك سرد حكاياتهم عن تربصهم بأعدائهم، وعن مغامراتهم من أماكن غير محدّدة جغرافيا، ولكنهم أشاروا إلى طبيعتها بالوصف الدّقيق، فسموها؛ المراقب، وهي أعالي الجبال وقممها، فكانت ملجأهم، منها يتربصون، ويترصّدون قوافل العرب للإغارة عليها.

مميزات شعر الصعاليك:

1 - غياب المقدمة الطللية.

2 - وحدة الموضوع.

3 - شعرهم شعر مقطوعات.

4 - الواقعية والصدق.